سالم بهوان .. ذكريات طفولة و رجولة

عبدالله بن أحمد الحارثي

(أبو اليقظان)

رحمة الله عليك يا أبا حمد ... ظَهرتَ في حياتنا فجأةً بعهد الطفولة.. و رحلتَ عن حياتنا فجأةً بعهد الرجولة، و ما بين العهدين كثير من الذكريات، كان شريط أحداثها ينساب في الذاكرة مثل انسياب أفلاج عُمان، و يظهر بالألوان الكاملة مثل الأفلام الهندية التي أدمناها معًا في بداية عهدنا بالسينما... رحمة الله عليك.

للحديث عن الذكريات مع صانعيها لابد من زفرة آهات و نفحة حنين... إذ كان مساء ورديًا ذلك المساء الذي ضمه الينا لأول مرة في غرفة واحدة بالقسم الداخلي من قرية (الجيمي) بواحة (العين) و التي كانت حينها بالكاد تبدأ الانتقال من واحة نخيل وأفلاج الى مدينة متكاملة الخدمات. التاريخ على وجه التقريب هو الأسبوع الأول من شهر سبتمبر ١٩٧٠م (أي قبل سبع و أربعين سنة) و أعمارنا (نحن الأربعة) الذين آوينا إلى تلك الغرفة، تتراوح بين ٨ و ١٢ سنة و هي أعمار كل الطلبة الساكنين في تلك الغرف المصفوفة بجوار غرفتنا بالدور الثاني من مبنى المدرسة.. جئنا حاملين معنا في (الوانيت) من قرانا البعيدة بالناحية الشرقية من عمان إلى الناحية الغربية منها، حقائب مليئة بالأحلام، ننشد دراسة في المدارس العصرية، التي بدأ صيتها ينتشر، فأودعنا

صورة تعود الى سنة ١٩٧١ وكان عمره ٩ سنوات تقريبا

ذكرى الرحلة البرية عام ١٩٧٢م يبدو فيها سالم بهوان واقفًا (الثاني على يمين الناظر للصورة) فيما يبدو أخوه (محمد) أول الجالسين من اليسار و (الكاتب) رابع الواقفين

آباؤنا أمانة بيد المشرف على القسم الداخلي ضمن طلبة جاؤا من أغلب نواحي عُمان..... و الحقيقة كنا في ضيافة شيخ كريم و زعيم عظيم طيّب الله ثراه و أكرم مثواه آمين.

استلمنا الغرفة نحن الأشقاء الثلاثة (علي و عبدالله و سلطان) قبل وصول (رابعنا) (رحمة الله عليه- بأيام قليلة، و بقي أحد الأسرة لدينا فارغًا، فيما ضمت الغرفة المجاورة ثلاثة أشقاء و بقي السرير الرابع لديهم) أيضًا- فارغًا، فكان هذان السريران الفارغان من نصيب الشقيقين (محمد و سالم) وفي ذلك المساء تم التعارف لأول مرة.

في الصباح الباكر من اليوم التالي توجهنا بهما إلى قاعة الطعام لتناول الإفطار مع باقي الطلبة، و انهالت علينا الأسئلة عن هذين الضيفين فكانت الإجابة أنهما (زميلان من صور) و حيث إن أبناء صور الدارسين بمدينة العين يسكن أغلبهم في القسم الداخلي الآخر الذي يقع وسط المدينة (الواحة) كان ترحيب زملائنا بهم مصحوبًا بسعادة بالغة، لأن تنوع المشاركة الحياتية من بلدان عمانية مختلفة تثري الصحبة و الرفقة بكثير من الأخبار خصوصًا في تلك الفترة التي كانت المعلومات فيها شحيحة و تنتقل الأخبار ببطء شديد.

توجهنا (نحن الثلاثة الأشقاء- إلى مدرستنا (النهيّانية) بعد الإفطار على حافلة معدة لذلك الانتقال اليومي، بينما تولى (المشرف) اصطحاب (الزميلين الصوريين) الى المدرسة التي تحت السكن لتسجيلهما والحاقهما بالدراسة...

مع الأيام بدأت تتكشف المواهب و الهوايات، بين الطلبة من سكان القسم الداخلي فمنّا من أجاد في كرة القدم و خصوصًا زملاؤنا (أولاد حارب) أعمام الحارس الأمين علي الحبسي فهو من عائلة تستهويهم كرة القدم، و منّا من أبدع في المسابقات الثقافية، أحسبني كنت منهم فأطلق عليّ لقب (الذكي) و كان (المشرف) موزع الألقاب على الطلبة ينطقه باللهجة الشامية (الزكي) فظل جميع طلبة القسم الداخلي يطلقونه بنفس الصيغة كل ما رأوني(سامحهم الله-، زميلنا الرابع) رحمة الله عليه- اكتشف عالم السينما في تلك الفترة المبكرة فكان ينتظر ليلة الإجازة بفارغ الصبر ليتسنى لنا استغلالها بالذهاب الى (سينما الجيمي) التي افتتحت على بعد (١ كم) من السكن، و لم يكن لنا من خيار أفضل غير مرافقته لنستنفذ معه ذلك الوقت الفارغ من ليلة الإجازة.

لم يكن الذهاب إلى السينما سهلاً و انما يستلزم الاستئذان من (الأستاذ المشرف) و إبلاغه باسم الفيلم و مضمونه و أن يكون الذهاب جماعيا و ليس فرديا بمعنى لا يقل عن ثلاثة أشخاص قبل أن تصدر الموافقة منه... مع الزمن تعلمنا كيف نسرق أنفسنا أو نأتي بأعذار أخرى لنتخلص من تلك الشروط.

ذات نهار من نهارات يوم الجمعة (يوم الإجازة الوحيد) حنّت ذكرياتنا الطفولية إلى (سبحة) في الفلج، مثلما تعودناها في فلج المضيرب، فاصطحبنا هذا الزميل الآتي من مدينة ساحلية معنا إلى أفلاج العين، وعلى أكتافنا فوط ملوّنة، و كان يومًا رائعًا من ذكريات الطفولة ذكّرنا بالنهر الصغير و ذكره بالبحر الكبير، شدّنا الأمر لتكرار التجربة في بعض نهارات الإجازات التالية، و اكتشفنا فيما بعد، أن أفلاج البريمي أقرب الى السكن من أفلاج العين و كنا في الغالب نتوجه إليها

مشيًا على الأقدام، دون أن تستوقفنا أية إشارة حدودية، أو أسلاك شائكة مثلما هي عليه اليوم.

مرت الأسابيع الأولى من السنة الدراسية وعلمنا أن حضرة صاحب الجلالة السلطان قابوس المعظم سيقوم بأول زيارة له إلى ولاية البريمي، و أنها قد زينت لهذا الاستقبال العظيم، فقرر مجموعة منا الذهاب إلى طرقاتها و أزقتها الرملية -آنذاك- منذ الصباح الباكر و احتساب ذلك اليوم (أول غياب) عن الدراسة، شاء من شاء و أبى من أبى، حتى لا يفوتنا المشهد، و اصطحبنا معنا فوطنا (الملوّنة) حتى لا تفوتنا متعة السباحة في (فلج حماسة) مع تلك الحماسة الطارئة السعيدة... عندما وصلنا إلى الواحة (العروس) وجدنا الطرقات مليئة بالرجال و الأطفال و النساء يرفعون الأعلام و الصور في انتظار الموكب الميمون، فكان لابد لنا من إخفاء تلك الفوط عن اكتافنا تحت نخلة مجاورة للفلج، والذهاب إلى الطريق العام للانتظار مع المنتظرين و بعد أن لوّحنا بأيدينا لجلالة السلطان و لموكب اللاندروفرات العسكرية، عدنا إلى فوطنا مسرعين فوجدناها قد اختفت، فانغمسنا في الفلج بملابسنا لإكمال الفرحة، ثم عدنا أدراجنا إلى السكن عند موعد العودة المعتاد من المدارس.. و من شدة فرحتنا برؤية جلالة السلطان المعظم، أعلنا للجميع أننا غبنا عن مدارسنا ، و أننا رأيناه ـ حفظه الله و رعاه- جالسًا في الكرسي الأمامي، لقد كان من حقنا أن نفرح.

مرت الأعوام و تبدّل السكن و توزعنا بين أقسام جديدة فصرنا نلتقي عند شباك التذاكر و الرحلات كالرحلة البرية عام١٩٧٢م أو في المباريات أو المسابقات، و عدنا إلى السلطنة و تعرفنا عبر هذين الزميلين الرائعين على والدهما الشيخ مبارك بن جمعه بهوان فصرنا نلقاه أكثر مما نلقى زميلي الطفولة، و علمنا منه بأن (سالم) اختار الهند لاستكمال دراسته (كان والده الكريم يملك محلًا تجاريًا في مطرح إلى جوار محل الشيخين سهيل و سعود بهوان) هذا في سبعينيات القرن الماضي- و كنا نتوقف للتحية و تبادل الأخبار معه كلما مررنا أمام محله بشارع (خور بمبه) في سوق مطرح.

لقد تعرفنا عن طريقهما قبل ذلك على أعمامهما (الدكتور حاليًا) عبدالله بن جمعه بهوان و (الجار حاليًا) محمد بن جمعة بهوان إذ كانا زميلي دراسة أيضًا في نفس الفترة بنفس البلد، و امتدت الزمالة معي بالنسبة للدكتور عبدالله إبّان الدراسات العليا بالقاهرة... ثم تعرّفنا على اخيهما الأصغر (سعيد) الذي يمتلك حسًا تجاريًا كوالده (أمد الله في أعمارهم جميعًا- و ألهمهم الصبر و السلوان على فقدان عزيزنا أبو حمد)رحمة الله عليه-.

ذكرى الرحلة البحرية عام ١٩٩٢م يبدو فيها سالم بهوان واقفًا (الثالث على يمين الناظر للصورة)

ذكريات الرجولة بدأت مع بدايات ظهور فناننا الجميل على المسرح و شاشات التلفزة، و أجزم بأن الموهبة الفنية نمت لديه إبّان مشاهدة بطولات (ميتاب باتشان) و أصحابه في ذلك الوقت المبكر. لم تكن هذه الفترة الأخيرة تخلو من رحلات و لقاءات فلقد ضمتنا ذات نهار في صلالة (رحلة بحرية) على قارب (كنعد واحد) من القوارب التابعة لليخوت السلطانية في (ريسوت) فاستعدنا ذكريات رحلاتنا البرية السابقة.

وفي لقاءاتنا المتكررة بضيافة السيد علي بن حمود البوسعيدي الرمضانية من العادة أن نلتقط الصور التذكارية ولكن تختفي تلك الصور في هواتف ملتقطيها و لم يصلنا شيء منها للحفظ، و ذات مرة التقينا و تعانقنا فهمس في أذني (أريدك في سالفة ..) فجاوبته (حاضرين) .. رد (سوف أتصل بك لاحقًا)، المهم في انتظار اتصال منه متى ما وجد من نفسه الفراغ لتفريغ «السالفة» ، كانت رسائل (الواتساب) الأسبوعية أو الفصلية تمد جميل التواصل بيننا. ليتها لم تنقطع.

أما عن «السالفة» فقد كان جزءًا كبيرًا من مسلسل (ولد الذيب) قد سُجّل في الرمال المجاورة لمخيم (طوي سالم) المسمى (مخيّم بدو العرب) بجعلان بني بو حسن... وقد نزل (ولد الذيب) و طاقمه الفني في ذلك المخيّم السياحي أيامًا عديدةً، فبادرت من نفسي لاكتشاف «السالفة» من هناك ... دون أن يبديها لي، و عسى أنني أصبت و إلاّ فقد ماتت قبل ميلادها .

كان آخر لقاء بيننا في رمضان المنصرم بنفس المناسبة الحميدة التي تجمعنا سنويًا فهمست في أذنه (أريدك في سالفة ..!) فارتفعت ضحكته عاليًا و رد (حاضرين...)، و ترافقنا للوضوء من أجل أداء الفريضة الواجبة بعد تناول الإفطار مباشرة، و لم نلتق بعد تلك الليلة الروحانية، إلّا أنني رأيته متجليًا في قمة الوفاء و التقدير كعادته، في آخر صورة تنشر له بوسائل التواصل الاجتماعي قبل انتقاله إلى الرفيق الأعلى، تلك الصورة التي يمسك فيها بكرسي الفنان سالم بن علي سعيد، ليدفعه إلى خارج المستشفى متوجهًا للعلاج بالخارج -نسأل الله الصحة والسلامة لسالم بن علي و الرحمة و المغفرة لسالم بهوان- راجين من المولى جلت قدرته لنا و لهم المثوبة و الرضوان و أن يكون لقاءنا الأجمل في الفردوس الأعلى بإذن الله، إنه على كل شي قدير، و بالإجابة جدير، نعم المولى و نعم النصير.

نصوص

محمود حمد

ضدان في نفسي
وأنت على انتهاء الحرف
أكتب كي أقول :
بأنني مشتق من ألم بعيد
هكذا أبكي على ذكراك
أسعى أن ألون ما تبقى من رماد
القلب لون الرمل
كي تذر المشيئة حزنها فيه
ويرجع كوكبا يمشي إلى المعنى
بدون قصيدتي
فبقية الأحلام لا تهب الحياة
جنون صوتك
كيف لي أن أنتشي بالبحر
والسفن الشبيهة بالطفولات الجريئة
لا تبح لي سرها إلا بشَعْرِك
في ملامح صورتي
الأعتى أمامك
كيف لي أن أحسب المدن
المعدة للشراب
على دموع الموعد القمري
هل يكفي الجدار الباهت المنسي أن
يدنو
إليَّ تبخترا لأقول أنت مدينة
أخرى وأنت المنتهى
وأبوح عن سري الدفين
كعابر يذوي أمام الفندق المهجور
كيف لي أن أطعم الحَبّ النوارس
والبداية أنت أغنية ازرقاق البحر
خاتمة الأساطيل
القديمة
كيف لي أن أشرب الشاي
المعد على بقية نشوتي بالحب فيك
ولم أكن أدري
بأن الشاي أقرب للسماء
من الصلاة
وأنت أبهى من يرتل قهوة المقهى
ويؤمن بالأغاني
الفارسية
كيف لي أن أنتهي فوق السلالم
والبقية من جنوني
ضاع في دمعي عليك
ولم أكن أمشي إليّ
بغير كفك
واختصار جميع ما أحببت في
عشق الحياة
وما تركت لأنتهي كلي إليك
مؤطر بروائح العطر الجميل على يديك
أنا هناك أنا هنا
لا فرق
فالجهة الوحيدة كنت أنت
ولا جهات سواك تصلح أن تكون
لطائر مثلي يعود ويرتوي
من آخر النبع الوحيد
فكيف لي أن أبدأ الآن ابتكار طريقة
لأعيش بعدك
لم أعد شيئا يساوي نفسه بالموت
حتى في الغياب
ولم أعد نفسا يبادل نبتة شكل الحياة
كما تكون هي الحياة
سأنتهي مما أقول
وليس ذلك أنني تعب فحسب
وإنما لأعد نفسي للرحيل
فقد فقدت شهيتي في الحلم
لم تعد البلاد كما عهدت
بغير دفئك في اللقاء
ولم يكن للموج رقصك
حين كنا ذاهبين إلى الغروب
لوحدنا
لمن أغني اليوم والشطآن تخفي نفسها
عني وراء غيابك
المنشق من وجعي القديم